الفَهْمُ القُرآنيُّ بَيْنَ الإمكانِ والمَنْعِ

م.د. عماد كاظم مانع

كلية الامام الكاظم (ع) الجامعة/ أقسام ميسان

https://orcid.org/0 000-0002-5427-8628

المُسْتَخْلَصُ:

تُعنى مسألةُ فَهمِ القرآن عند جميعِ المسلمينَ بعنايةٍ خاصّةٍ، على اختلافِ اتجاهاتهم ومتبنياتهم الفكرية والعقدية، حيثُ اهتمَّ المسلمونَ منذُ صدر الإسلام بفَهم وتفَسير القرآن الكريم، من خلال الأسئلةِ التي كانت تُوجّهُ الى الرسولِ الأكرمِ (صلّى اللّه عليه وآله)، حولَ تفسيرِ جملةٍ من الآيات القرآنيةِ، باعتباره المُفسِّرَ الأوّل بنصِّ قوله تعالى:((**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)) (القرآن، سورة النحل ٤٤)، وقال أميرُ المؤمنين (ع):(**مَنْ فَهِمَ القرآن فَسَّر جُمَل العلمِ**) (الكاشاني، ١٤١٦ هـ)، ولكن وقع اختلافٌ بين العُلماء في فَهْمِ القُرآن، هل أنَّ فَهْمَ القُرآن مختصٌ بفئة خاصةٍ من الناس وهم المعصومون(عليهم السلام) أم يشملُ الناسَ عامّةً؟ وسيتضحُ من خلال البحثِ أنَّ فَهْمَ القُرآنِ غيرُ مُختصٍ بالمعصومين (عليهم السلام)، بل يشملُ غيرهم وذلك من خلال الأدلّة القرآنية والروائية والسيرة العملية.

الكلمات المفتاحية: الفهم، القرآن، الإمكان، المنع.

Abstract :

The issue of understanding the Qur'an is of particular concern to all Muslims, regardless of their different orientations and intellectual and doctrinal beliefs. Since the dawn of Islam, Muslims have been interested in understanding and interpreting the Holy Qur'an. This was prompted by questions directed to the Noble Messenger (may God bless him and his family) regarding the interpretation of a number of Qur'anic verses. He was considered the primary interpreter, as God Almighty says: "And We have sent down to you the message that you may make clear to the people what was sent down to them and that they might give thought." The Commander of the Faithful (peace be upon him) said: "Whoever understands the Qur'an interprets the entirety of knowledge." However, scholars differed regarding the understanding of the Qur'an. Is understanding the Qur'an limited to a specific group of people, namely the infallible ones (peace be upon them), or does it encompass all people? This research will reveal that understanding the Qur'an is not limited to specific groups. The infallible ones (peace be upon them) are also included, as evidenced by the Quran, hadiths, and practical experience.

Keywords: understanding, Quran, possibility, prohibition

المقدمة:

يُعدُّ القرآنُ الكريمُ المرجعيةَ الأولى في المنظومة الإسلامية، وتقعُ في طوله المرجعيّاتُ المعرفيّة الأخرى ولذا سُمّي في الروايات بالثقل الأكبر، حيثُ عبّر القرآنُ عن نفسه بقوله تعالى: ((**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** (القرآن، سورة الإسراء ٩))، فهو يَهدي للتي هي أقومُ، وهو الكتابُ السماويُ الذي أثبتَ صلاحيّتهُ لكُلِّ عصرٍ، وفي ضوءِ ذلك يكون البحثُ في فَهْمِ القرآن الكريم بحثًا تحليليًا للنصوص ومناقشتها، فبعد بيان الأدلة المُدعى إثباتُها على عدم فَهم القرآن وردّها من خلال الأدلة القرآنية والروائية وغيرها، يتشكل عندنا القدرُ المتيقنُ في إمكانيّة الفهم القرآني، ولعلَّ من وجوه قوله تعالى: ((**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**)) (القرآن، سورة محمد ٢٤)، ألّا يعملونَ بالقرآنِ بعد فهمهِ، فالمخاطبون في آنذاك كانوا يفهمونَ المراد، ولكن غلبتْ عليهم شقْوتُهم؛ ولذلك لا يُعدُّ فهمُهم للقرآن الكريم فَهمًا حقيقيًا لهُ بعد نزوله؛ لأنَّ الفهم هو العمل بما جاء به القرآنُ الكريمُ؛ وعليه سيتناول الباحثُ في هذا البحث الفهم القرآني لما لهُ من أهميةٍ في معرفة ما يُريدهُ الله تعالى من عباده، فقسّمتُ البحثَ الى ثلاثة مباحث وجعلت لكل

مبحث مطالب فتناولتُ في المَبحث الأوّل الفهمَ القُرآني في اللُغة والاصطلاح وفي المبحث الثاني أدلة المانعين لإثبات منع الفهم القرآني والرد عليهم وفي المبحث الثالث الأدلة على الفهم القرآني من آيات وروايات وغيرهما وجعلت لهُ نتائج ثم انتهيت بقائمة المصادر والمراجع.

المبحثُ الأولُ: معنى الفَهْمِ القُرآني في اللُغة والاصطلاح:

المطلبُ الأولُ: الفهم لغة واصطلاحًا:

أولاً: الفهمُ لغةً: هو المعرفةُ والتعقّلُ أو معرفتُكَ الشيءَ بالقلبِ، نقولُ فهمهُ فَهمًا وفهامةً، علَّمهَ حُسنَ تصوّر المعنى، أو هيئةً للإنسان بها يتحققُ معاني ما يُحسن أو جودةُ استعدادِ الذهن للاستنباط. والجمع، أَفْهامٌ، وفهوم (الفراهيدي، ١٤٠٩هـ).

ثانيًا: اصطلاحًا: لم يعثرِ الباحثُ على تعريفٍ صريحٍ ودقيقٍ للفَهم الَّا أنَه يُوجدُ مضمونٌ عام مُستفادٌ من التعريف الاصطلاحي للتَّفسير أو التأويل. وقد استُعمِل مُؤخرًا بمعنى القراءةِ المعاصرة يُقالُ فلانٌ صاحبُ قراءةٍ؛ أي صاحبُ فَهم خاصٍ، أو الوقوفُ الفعليُ على تعاليم القرآن بتدبرٍ، ولكن هناكَ من أعطى معنًى خاصًّا للفهم يقرب من المعنى اللغوي. وذكرت تعريفاتٌ لهذا المصطلح كالتالي:

١- «الفَهْمُ معناه الالفةُ مع الشيء، فتقع به المعرفة بالقلب، فهو تصوّر عميق للمعنى من لفظ المخاطب عند السماع او الاشارة، لذا لا يصح ان يوصف به الله تعالى، لانّ الادراك في الفهم متفاوت (الجبار، ١٩٩٧م)»، ومعنى يقرب من المعنى اللغوي للكلمة.

٢- «الفَهْمُ عمليةٌ اجرائيةٌ تعتمد على مجموعة مقدّمات علميّة ومعنويّة تهدف للوصول الى المضامين الحقيقية للنص القرآني (الحسن)».

٣- «الفَهْمُ في الاصطلاح القرآني هو الوقوفُ الفعليُ على تعاليمه بتدبرٍ؛ فلا يكفي مجرد العلم به، او مجرد فهم مراده، وانّما لابدّ من التدبر به والعمل بمقتضياته قال تعالى: ((**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**)) (القرآن، سورة محمد ٢٤) أي: ألا يعملون بالقران بعد فهمه (الحسن).

التعريفانِ الأخيرانِ، صريحانِ في تعريف الفَهم القرآني ويبدو أنّ التعريف الثالث يجمع بين العلم بالقرآن بأمرين: التفسير والتأويل وبين التدبر والعمل بهذا العلم، وهذا هو التعريف الجامع ولكن كل ما نستطيع أن نصل الى فهم مفسر، هو علمه بالقرآن وكيفية دركه للنص الوحيانى، لذا يكون التعريف الثاني هو أقرب تعريف لمعنى الفهم القرآني.

المطلب الثاني: القرآن لغة واصطلاحًا:

اتّفقَ أهلُ العلم على أنَّ لفظ (قرآن) اسم وليس بفعل ولا حرف، لكنهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدراً أو وصفاً على أقوال عدة (فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٣٩٩ هـ).

القولُ الأول: إنه اسم علم غير منقول وضعَ من أوّل الأمر علماً على الكلام المنزَّل على النبي محمد (صلى الله عليه واله)، وهو اسم جامد غير مهموز، مثل التوراة والإنجيل، وهذا القول مرويٌ عن جماعةٍ من العلماء منهم: الشافعيُ، وابنُ كثير وغيرهما ونقل ابنُ منظور أنَّ الشافعي كان يقول: القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأتُ ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل.

القول الثاني :القائلون بأن لفظ القرآن "مهموز" فقد اختلفوا على رأيين:

الاول :أن القرآن مصدر (قرأ) بمعنى: (تلا) كالرجحان والغفران، ثم نُقل من المصدر وجُعل اسماً للكلام المنزَّل على نبينا محمد (صلى الله عليه واله). يشهد له قوله تعالى:((**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ اتَّبِعْ قُرْآنَهُ** (القرآن سورة القيامة ١٨)))أي: قراءته.

الثاني :أن القرآن: وصف على وزن فعلان مشتق من (القُرْء) بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، وقرأت الشيء قرآناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض (منظور).

وسمي القرآن قرآناً، لأنه جمع القصَصَ، والأمر والنهي والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران (الطريحي، ١٤٠٨ هـ).

القول الثالث : القائلون بأن لفظ القرآن (غير مهموز) لكنهم اختلفوا في أصل اشتقاقه على رأيين:

الرأي الاول : إنه مشتق من قَرَنْتُ الشيء بالشيء إذا ضَممت أحدهما إلى الآخر.

قالوا: فسُميّ القرآن به: لِقِران السُور والآيات والحروف فيه، ومنه فسُمّيَ الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران (الزركشي، ١٩٥٧ م).

الرأي الثاني: إنهُ مشتقٌ من(القرائن) جمع قرينة، لأنَّ آياته يُصدّق بعضها بعضاً ويُشبه بعضها بعضًا (السيوطي).

ثانيا: القرآن اصطلاحًا:

القرآن الكريم هو الكلام الالهي الذي نزل على خاتم الانبياء وقد بلغه النبي (صلى الله عليه واله) إلى الامة ووصل الينا بالتواتر وقد تكفل الله بحفظه من التحريف كما قال تعالى: ((**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)) (القرآن، سورة الحجر ٩).

قال الفضلي : هو كلام الله المنزل على خاتم الأنبياء باللفظ العربي المتعبد بتلاوته المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلا متواترا (الفضلي، ٢٠١٥م).

وقال الحكيم: القرآن الكريم هو الكلام المعجز المنزل وحيًا على النبي (صلى الله عليه وآله) المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته (الحكيم)، وقال العطّار: و يمكن القول إن القرآن الكريم هو:

وحيُ اللّه المنزل علي النبي محمد (صلّى اللّه عليه وآله) لفظًا و معنىً و أسلوبًا، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر (العطار، ١٤٣٣هـ).

المبحثُ الثاني: أدلةُ المانعينَ لإثباتِ منعِ الفَهم القرآني والرد عليهم:

وهي مجموعةٌ من الأدلةِ الاجتهاديّةِ والقُرآنيّةِ والروائيّةِ التي سِيقتْ لإثباتِ عَدمِ فَهْمِ القُرآنِ الكريم، وانتهتْ بأصحابِها الى غلقِ دائرةِ فَهْمِ القُرآن، وعدمِ إمكانِ العمَلِ به، وأنهُ يشتمل على معانٍ أعمق وأدق من التفسير وبأنّه إنّما نزل على قدر عقول أهل الذكر (عليهم السلام) وبأنَّ العلم بناسخه ومنسوخه والباقي على ظاهره وغير الباقي على ظاهره ليس الاّ عندنا أهل البيت (عليهم السلام) (الستراّبادي)، وسيتضح بعد بيان الأدلة المُدعى ورودها، بأن القرآن يُمكن فهمه الاّ آيات الأحكام والتي هي بحاجة الى التفصيل عن طريق المعصوم(ع) وإلّا لو تمَّ فهمهُ كُلّا– أي القرآن– أو بعضها بالنسبة الى الأحكام الشرعية والمعارف الإلهية بدونهم (عليهم السلام) لصدق الافتراق ولو في الجملة (البحراني).

المطلبُ الأولُ: الأدلة الاجتهادية:

وهي مجموعةٌ من الاستنباطات الاستحسانات التي نشأتْ غالبًا من شبهاتٍ علميّةٍ أفضَتْ الى القول بعدمِ إمكانِ فَهمِ القرآن الكريم، نذكرُ أهمّها مع الرد عليها:

أولًا: المتشابه في القرآن الكريم:

إنَّ وجود المتشابه في القرآن الكريم من جهةٍ، وصعوبة تحديده من المحكم، يجعلُ فهمَ القرآنِ عسيرًا ولا يمكنُ فَهمه.

الرد: إنَّ اشتمالَ القرآنِ على المتشابه لا يمنعُ من تحصيلِ الفَهم؛ وذلك لأنَّ أكثر القرآنِ محكمًا وليسَ مُتشابهًا ونسبة المتشابهات الى المحكماتِ هابطة جدًا؛ فلو اعتبرنا من مجموع آي القرآن ما يربو على ستّة آلاف آية، فإنَّ المتشابهاتِ لا تبلغُ المائتينِ لو أخذنا بالتدقيق وحذف المكرراتِ (معرفة، ٢٠١١)، عِلمًا أنَّ القاعدةَ المعمول بها بين الفريقينِ لمعالجة المتشابه، تنصُ على إرجاعِ المتشابه الى المُحكمِ قال الطباطبائي:(ولا يجوز اتباع ما ينافي المحكم من معانيه المتشابهة لسطوع البيان في المحكم فيجب أن يتبعَ من معانيه المحتملة ما يوافق معنى المحكم وهذا بعينه إرجاع المتشابه إلى المحكم) (الطباطبائي، ١٤١٧ هـ)، **وورد عن الإمام الرضا (عليه السلام): (مَنْ رَدَّ مُتشابهَ القرآنِ الى مُحكمهِ فَقد هُدي الى صراطٍ مُستقيمٍ)** (العاملي)؛ وعليه لا يُمكنُ أن يُعقلُ بعدم فَهم القرآن الكريمِ وذكر الطبري:(وذلك أن جميع ما أنزل الله عز وجل من آي القرآن على رسول الله (ص(، فإنما أنزله عليه بيانا له ولامته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل. فإذا كان ذلك كذلك، فكل ما فيه لخلقه إليه الحاجة، وإن كان في بعضه ما بهم عن بعض معانيه الغنى، وإن اضطرته الحاجة إليه في معان كثيرة)

(الطبري، ١٤١٥)، وعليه لا يبقى عائقٌ أمام طالبِ الحقيقةِ للوصول الى المعارف القرآنية بما فيها المتشابهُ لمعرفة الفَهم القرآني، كما قال الخوئي:(إنَّ لفظَ المُتشابه واضحُ المعنى ولا إجمالَ فيه ولا تشابهَ، ومعناهُ أنْ يكونَ للفظٍ وجهانِ من المعاني أو أكثر، وجميعُ هذه المعاني في درجةٍ واحدةٍ بالنسبة إلى ذلك اللفظ، فإذا أُطلقَ ذلك اللفظُ احتُملَ في كلِ واحدٍ من هذه المعاني أنْ يكونَ هو المراد، ولذلك فيجبُ التوقفُ في الحكم إلى أن تدلَّ قرينةٌ على التعيين، وعلى ذلك فلا يكونُ اللفظُ الظاهرُ من المُتشابه. ولو سلَّمنا أنَّ لفظَ المُتشابه متشابه، يحتمل شموله للظاهر، فهذا لا يمنع عن العمل بالظاهر بعد استقرار السيرة بين العقلاء على اتِّباع الظهور من الكلام) (الخوئي)، فمن خلال ما تَّم ذكرهُ اتَّضحَ أنَّ القرآنَ يُمكن فَهمهُ حتى مع وجود المتشابه.

ثانيًا: وجود الفاصلة الزمنية مانعة من فَهمه:

إنَّ الفاصلةَ الزمنيةَ بيننا وبينَ نزول القرآنِ الكريمِ طويلةٌ، مما أوجدَ مسافة كبيرةً بيننا وبينَ فهم القرآن، لضعفِ لغتنا، وقوة لغة القرآن ومتانتها من جهة أخرى؛ فضلًا عن فقدانِ القرائن الحالية التي تحفُّ النصَ، وانحسار الروايات التفسيرية بالقياس للروايات غير التفسيرية، كما أنَّ الواصل الينا قليل، إمّا ضعيف السند في أصله، وإمّا اختلط بالإسرائيليات، فهذه الأمور تشكلُ حاجزًا حقيقيًا يمنعُ فَهمَ القرآن.

الرد: إنَّ الفاصلةَ الزمنيةَ الطويلةَ داعيةٌ لزيادةِ التدبرِ في القرآن الكريم لا للمنعِ من فَهمهِ، وأمَّا ضعف لغتنا مقبولُ إذا كان المطلوبُ من الناس عامّة التصدي لتفسير القرآن وتأويلهِ وفهمهِ بالمعنى الاصطلاحي للفهم، إلّا أنَّ الأمرَ ليسَ كذلكَ، فإنَّ المعنيّينَ بفهم القرآنِ هم المتخصصونَ بعلوم القرآنِ لا غير، وعليه إنَّ كل عقلٍ سليم مجبول على التفكير في حقائق العالم، ويستنبط منها بقدر فهمهِ (الحسن)، وكذا الأمر في القرآن الكريم؛ لأنّهُ من جملة الكلام المشتمل على الحقائق الدنيوية والأخروية، ولذا كان الصحابة والتابعون يُفسرونه بقدر فهمهم ولكن لمّا كان معنى كل كلام أصالةً وذاتًا عند المتكلم، فإنّ كل من كان أقربَ اليه مُصاحبةً واستفاضةً فهو أولى بفهم مقاصدهِ من الكلام وتبيينها، ومن أجل ذلك كان الصحابة وأهل البيت(عليهم السلام) أولى بتفسير القرآن من غيرهم، لا أن يكونَ مُنحصرًا بهم (الجنابذي، ١٤٠٨ هـ).

ثالثًا: انكار حجية الظواهر القرآنية:

من الأمور التي يُدَّعى فيها على عدم إمكان الفهم القرآني، بأنَّ الظاهر القرآني ليس بحجةٍ ؛ لأنَّهُ لا يكشفُ عن المعنى الحقيقي والمراد الجدّي للمتكلمِ، وعليه فلا معنى للقول بفهمهِ وتفسيرهِ.

الرد: إنَّ إبطال العمل بالظاهر مخالفٌ لقوله تعالى:((**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها**)) (القرآن، سورة محمد الآية ٢٤) ؛ إذ أنَّ التدبر طريقٌ الى فهم الكتاب العزيز، وحديث الثقلين والحديث الوارد عن النبي(صلى الله عليه وآله): **(فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن)** (الكليني، ١٣٦٣ ش) ؛ اللذينِ ألزمانا بالرجوع الى القرآن الكريم وللسيرتين العقلائية والمتشرعية اللتينِ كانتا قائمتينِ بالعمل في

ظاهر القرآن بمرأى ومسمع من المعصومين (عليهم السلام) ، علمًا أنَّ هناك قسمًا كبيرًا من الروايات تَحكي عن أنّ الأئمّة كانوا يحتجّون بظواهر الكتاب على أصحابهم، ويعلمون كيفية استفادة الأحكام منها ويفسرونها لا تفسيراً تعبديّاً، بل تفسيراً تعليميًا، بمعنى أنّ الإمام(عليه السلام) لا يتكلّمُ بما هو إمام، بل بما هوَ مُعلِّم يُرشد إلى كيفية دلالةِ الآيةِ على المقصود، بمعنى أنّ الطرفين قد اتّفقا على كونِ الكتاب حجّةً في حدّ ذاتهِ، ويتحاوران في ما هو المقصود من الآية (عماد، ٢٠٢٥م)، إذن يتضحُ أنَّ فهم القرآنِ يمكن الاعتماد عليه عن طريق الظاهر القرآني.

المطلبُ الثاني: أدلة قرآنية:

هناك بعضُ الآيات القرآنية أدُعي دلالتها على عدم إمكان فهم القرآن الكريم سنتناولها مع بيان دلالتها :

أولًا: قوله تعالى: ((**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**)) (القرآن، سورة الواقعة الآية ٧٧-٧٦) ، حيثُ فُسر المُطهّرون بأهل البيت(عليهم السلام) بقرينة قوله تعالى:((**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**)) (القرآن، سورة الأحزاب ٣٣)، والتي تثبت العصمة من كل ما يتنفرُ منهُ الطبعُ السليمُ، وأَن المسَّ بمعنى المّس المعنوي، أي درك معاني القرآن، وليس مسّ الكتابة الحرفيّة ؛ وعليه تكون الجملة إخباريةً عمّا يتمتعُ بهِ أهلُ البيت(عليهم السلام)، وليستْ إنشائية بدليل كون(لا) نافية وليستْ جازمةً فلو كانت جازمة لزم أن تكون إنشائيةً ، وعندها يكون المسُّ ماديًا (الحسن).

الرد:

الآية الكريمة تُشيرُ الى أنَّ هناك ثلةً طاهرة مُطهرةً من كل رجسٍ، وهم أهل البيت(عليهم السلام)، قال الخوئي إنَّ قوله تعالى: ((**لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**)) (القرآن، سورة الواقعة ٧٧)، لا يستفادُ منه حكم المسألة فضلاً أن يدل بالأولوية فلأن المطهّر غير المُتطهّر، حيثُ إنّ الثاني ظاهرٌ من تطهّر من الحدثِ بالوضوء أو الغسل أو من الخبث بغسله، وأمّا المطهّر فهو عمّن طهّره الله تعالى من الزلل والخطأ. وقوله تعالى: :((**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**)) (القرآن، سورة الأحزاب ٣٣)، تشير الى أنَّ مسَّ الكتاب- والذي هو كناية عن دركهِ بما له من البواطنِ- لا يتيسَّرُ لغير الأئمة المُطهّرين، فإنّ غير من طهّرهُ الله تعالى لا يصل من الكتاب إلّا الى ظواهرهِ فالآية الكريمةُ أجنبيةً (الخوئي ا.، ١٤١٠ ه)، وقال الطباطبائي: المعنى لا يمسُّ الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلّا المُطهّرون أو لا يمسُّ القرآنَ الذي في الكتاب إلّا المُطهّرون (الطباطبائي، ١٤١٧ ه)، وهذا لا يعني حَصْرَ الفَهمِ مُطلقًا بهم (عليهم السلام)، وإنّما الحصرُ التامُّ والعلمُ بحقيقةِ القرآنِ بهم .

ثانيًا: قوله تعالى:((**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**)) (القرآن، سورة النجم الآية ٢٨) ، ورد في الآية الكريمة نهيٌ عن العمل بالظاهر، وأنَّ التفسير هو عمل بالظاهر

والظواهر القرآنية ظنية الدلالة؛ وعليه فلا يصحُّ إلّا العلم الواقعي بمعاني القرآن الكريم، وهو لا يُمكنُ تحصيلُهُ إلّا عن طريق المعصوم(عليه السلام) فلا يمكن لغيرهم نيل معارف القرآن (الحسن).

الرد: إنَّ المطلوبَ هو فهمُ الظاهر والعمل به، تبعًا للأصولِ العُقلائية المُعتمدة من قبلِ القرآنِ نفسهِ؛ حيثُ دعا مخاطبَيهِ بعمومِ الألفاظِ من قبيل : يا أيُّها الناسُ، يا أيُّها الذين آمنوا، فخاطبهم بما يفهمونَ فيكون المطلوبُ موجودًا، ولو كان المطلوبُ هو الواقع دائمًا لتوقّفتِ الحركةُ في الحياة القائمةِ على أساسِ العمل بالظاهر، وعليه يكونُ العملُ المُعتبر والذي قام عليه دليلٌ قطعيٌ على حُجيتهِ وصحة العمل به خارجًا من دائرة عمومِ القاعدةِ الأوليّة (الطباطبائي، ١٤١٧ هـ) .

المطلبُ الثالث: أدلةٌ روائية:

تُوجد مجموعةٌ من الروايات، يُفهَمُ منها اختصاصُ فَهمِ القرآن بأهل البيت(عليهم السلام)، بدعوى أنَّ القرآن لا يفهمُهُ إلّا من خُوطبَ به وهم أهل البيت (عليهم السلام) منها:

الرواية الأولى: عن ابي عبد الله (عليه السلام) – في حديث – إن أبا عبد الله (عليه السلام) قال لأبي حنيفة: أنت فقيه العراق؟ قال: نعم، قال: فبم تفتيهم؟ قال:بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) قال: يا أبا حنيفة! تعرف كتاب الله حق معرفته؟ وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة! لقد ادعيت علما ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا محمد (صلى الله عليه وآله)، وما ورثك الله من كتابه حرفا (العاملي).

الرواية الثانية: ما رواه الكليني من حوار بين قتادة بن دعامة والامام الباقر(ع) حديث طويل منه(**... فقال أبو جعفر (عليه السلام) ويحك يا قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفا بحقنا يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: " واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم " ولم يعن البيت فيقول: إليه، فنحن والله دعوة إبراهيم (عليه السلام) التي من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر (عليه السلام) ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به)** (الكليني، ١٣٦٣ ش) .

الرواية الثالثة: عن أحمد البرقي عن ابيه عن علي بن الحكم، عن محمد بن الفضيل، عن شريس الوابشي، عن جابر بن يزيد الجعفي، **قال: سألت أبا جعفر (ع) عن شيء من التفسير فأجابني، ثم سألته عنه ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبتني في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم، فقال: يا جابر إن للقرآن بطنا وللبطن بطنا وله ظهر وللظهر ظهر، يا جابر ليس شيء أبعد من عقول الرجال**

من تفسير القرآن، إن الآية يكون أولها في شئ وآخرها في شئ وهو كلام متصل منصرف على وجوه (البرقي، ١٣٧٠ م).

ويمكن الرد على هذه الروايات بها بأمور عدة منها:

١- أنها معارضة للسنة القطعية المتواترة الحاكية لقول المعصوم وفعله وتقريره، ممَّا يدلُ على مرجعيّة أهل البيت (عليهم السلام) للمسلمين، وإحالتهم اليه في مقام اقتناص المعاني (الشاهرودي).

٢-أنَّ هذه الطائفة لا تصلحُ للردع عن العمل بالقرآن؛ لأنَّ الردع عن ارتكاز وفي موضوع له أهمية كبيرة لا يكفي في صدور ثلاث، بل لو كان هناك ردع عن العمل بالقرآن لكان واضحًا معلومًا (الشاهرودي).

٣-إنَّها ضعيفة السند جميعًا، فإنَّ أوجدت عند أحد احتمال الردع؛ فهو مسبوق بالإمضاء، فيجري استصحاب بقاء الحجية الثابتة في أول الشرع (الشاهرودي). وأنَّ ما يؤكدُ بطلانُ هذهِ الرواياتِ وجودُ ظاهرةٍ مشتركةٍ بينهم، هي ظاهرة الباطنية ومحاولة تحويل النظر من ظاهر الشريعةِ الى باطنها ولذلك اتفقوا على عدم فهمِ القرآن الكريم.

٤-إنَّ المراد من هذه الروايات وأمثالها أنّ فهمَ القرآن حقَّ فهمه، ومعرفة ظاهره وباطنه وناسخه ومنسوخه مختصٌ بمن خُوطب به فهم المخصوصون بعلم القرآن على واقعه وحقيقته وليس لغيرهم في ذلك نصيب، أمَّا أمثال قوله تعالى:((**قُلْ هُوَ اللهُ أحد**)) (القرآن، سورة الإخلاص الآية ١) مما يكون صريحًا في معناه فلا يحتاج الى من يبينهُ فيمكن فهمهُ (الخوئي).

المبحث الثالث: الأدلةُ على الفهم القرآني:

إنَّ القولَ في إمكان فهم القرآن الكريم أمرٌ لا شكَّ فيه، وإلّا فلا معنى لنزولهِ ومطالبتنا بالتمسّكِ به والعمل في آياته؛ حيثُ يُمثل الفهمُ للقرآني أحدَ أسبابِ ظهورِ الآراءِ والأفكارِ المختلفة لدى مُفسري القرآن الكريم، وذلك تبعًا لمباني كُلِ واحدٍ منهم ومنهجه وأسلوبه في التفسير، إذ توجدُ مناهجُ وأساليبُ تفسيريّةٌ مختلفةٌ ظهرتْ على مرّ التاريخ الإسلامي غيرَ أنّ المنهجَ الروائي الأثري كان أكثرها شيوعًا، ثم ظهرت بعده مناهجُ تفسيريةٌ وأساليبُ جديدةٌ تهدفُ جميعُها إلى فَهمِ القُرآن الكريم وبيان مراد الحقِّ تعالى في آياتِ الكتابِ الكريم بمظهرٍ حسنٍ ودقيقٍ وأوفى إلى المقصودِ الإلهي ومن الأدلّة على فَهم القرآن الكريم هي:

المطلب الأول: الأدلة القرآنية على الفهم القرآني:

ومن النصوص القرآنية الصريحة في إثبات إمكان فهم القرآن قوله تعالى:((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**)) (القرآن، سورة النساء الآية ١٧٤) ، حيثُ فُسِر البرهانُ بالنبي(صلّى اللّه عليه و آله) (العياشي)، و فُسِر النور بالقرآن الكريم (الطبرسي)، ويتأكد بالقرينة اللفظية السياقية، كما قال

الطباطبائي(والمراد بالنور هو القرآن لا محالة بقرينة قوله ((**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ**))، ويمكن أن يراد بالبرهان أيضا ذلك، والجملتان إذا تؤكد إحداهما الأخرى. (الطباطبائي، ١٤١٧ هـ)، وعليه كيف يكون القرآنُ واضحًا وظاهرًا ونورًا وهو غيرُ قابلٍ للفَهم ؟ ومنها قوله تعالى:((**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)) (القرآن، سورة يوسف الآية ٢)، أي إنّا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات في مرحلة النزول ملبسًا بلباس اللفظ العربي محلى بحليته؛ ليقع في معرض التعقل منك ومن قومك أو أمتك، ولو لم يقلب في وحيه في قالب اللفظ المقروء أو لم يجعل عربيًا مبينًا لم يعقل قومك ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بك لاختصاصك بوحيه وتعليمه. وفي ذلك دلالة ما على أن لألفاظ الكتاب العزيز من جهة تعينها بالاستناد إلى الوحي وكونها عربيةً دخلًا في ضبط أسرار الآيات وحقائق المعارف، ولو أنّه أوحى إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله)، بمعناه وكان اللفظ الحاكي له لفظه (صلّى اللّه عليه و آله)، كما في الأحاديث القدسية مثلًا أو ترجم إلى لغة أخرى خفى بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس ولم تنله أيدي تعقلهم وفهمهم (الطباطبائي، ١٤١٧ هـ)، وقوله تعالى: ((**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**)) (القرآن، سورة الشعراء الآية ١٩٥)، أي ظاهر في عربيته أو مبين للمقاصد تمام البيان والجار والمجرور متعلق بنزل أي أنزله بلسان عربي مبين (الطباطبائي، ١٤١٧ هـ)، ومنه قوله تعالى: ((**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**)) (الحكيم م.) ، أي أن القرآن لا يُمكنُ أن يُحقق أهدافهُ ورسالتهُ ما لم يكن ميسرًا للفَهم من قبل الناس، وأنْ يتاح لهم استخراج معانيه (الحكيم)، هذه وغيرها من الآيات الكريمة دالة على فهم القرآن الكريم .

المطلب الثاني: الأدلة الروائية على الفهم القرآني:

من أهم النصوص الروائية التي يُمكن أن يستدل بها على إمكان فهم القرآن الكريم حديث الثقلين فقد ورد في صحيح مسلم ونصه: عن زيد بن أرقم قال: (ثم قال: قام رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر ثم قال: **(أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي)** (الحجاج، ١٩٥٥)، وهذا الحديث يرجع الأمة الى القرآن والعترة الطاهرة، ولا شك أنَّ القرآن هو القدر المتيقن والمقطوع به بين الفريقين في حديث الثقلين، حيثُ جاء في بعض روايات مدرسة الخلفاء عطف السنة على القرآن بدلاً عن العترة الطاهرة، وعليه اذا كان القرآن غير قابل للفهم فما الفائدة من إرجاع الأمة اليه؟ وما معنى التمسك بشيء غير قابل للفهم؟ (الازرقي)، ومنها الحديث الوارد عن الصادق(ع):(**ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف)** (العاملي) ، وعنه ايضًا (ع):(**قال الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وتركك حديثا لم تروه خير من روايتك حديثا لم تحصه، إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوا به وما خالف كتاب الله فدعوه**) (العاملي) ، حيثُ

يرى الصدر إن عرض الروايات على الكتاب لا يمكن أن يتم الّا بإمكانية فهم النص القرآني والتفاعل معه بشكل مباشر وافتراض صحة هذا التعامل والنتائج التي يتوصل اليها (الحكيم).

المطلبُ الثالث: السيرةُ العمليّة لأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) :

ورد عن الأئمة(عليهم السلام)، أنّهم كانوا يستشهدون على بعض الأحكام التي يصدرونها بآية قرآنية، فلو كان النص القرآني مغلقًا لما كان لهذا الاستشهاد معنى، ولكان على الإمام(عليه السلام) أن يقول: أنا أفهم من الآية كذا وهذا يدل على إمكانية فهم القرآن الكريم، وكذلك استقرار سيرة العقلاء والمتشرعة على الأخذ بظواهر الألفاظ في فهم القرآن الكريم لا سيّما في العصر الأول للإسلام وعدم الردع عنهما باختراع طريقة أخرى للتفاهم، يوجب القطع بإمضاء تلك السيرة؛ وذلك لأن القرآن كتاب هداية، وفيه ما هو نص، وما هو ظاهر، ولو لم يرد الأخذ بالظاهر للزم أن يخترع طريقة أخرى غير تلك الطريقة السائدة آنذاك في الأخذ بظواهر الألفاظ لأجل بيان مراده، وإلاّ لا يصدق عليه أنّه كتاب هداية، ولا يصح إلزام الناس بما لم يبين لهم أو هو خلاف طريقة فهمهم (عزيز، ١٤٣٢)، لقوله تعالى: ((....وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)) (القرآن، سورة الاسراء الآية ١٥) ، وعليه تكون السيرة القائمة دليًلا على فهم القرآن وجواز والعمل به.

النتائج:

١- القرآنُ الكريمُ يُمثّلُ مركزَ الحركة الفكرية و مصدر التشريع الرئيسي في الإسلام، فيكون فهمُهُ وإدراكُ مراتبيّته مهمةً أساسيّةً في طريق التعاطي معه.
٢- القرآنُ الكريمُ هو الكلامُ المعجزُ المنزّل وحيًا على النبي (صلى الله عليه وآله) المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته.
٣- هناك مجموعة من الأدلةِ الاجتهاديّةِ والقُرآنيّةِ والروائيّةِ التي سِيقتْ لإثباتِ عَدمِ فَهْمِ القُرآنِ الكريم، وانتهتْ بأصحابِها الى غلقِ دائرةِ فَهْمِ القُرآن، وعدمِ إمكانِ العمَلِ به.
٤- الفهمُ في الاصطلاح هو الفهمُ الحقيقيُ للقُرآن الكريم والوقوفُ على تعاليمهِ بتدبرٍ والعمل بمقتضياته.
٥- إنَّ الفهمَ القرآني هو أمرٌ لا ريبَ فيه، وأدلتُهُ قرآنية وروائيةٌ فضلًا عن السيرتين العقلائية والمتشرعية .
٦- الروايات التي سيقت لإثبات عدم فهم القرآن معارضة للسنة القطعية المتواترة الحاكية لقول المعصوم وفعله وتقريره ولا تصلحُ للردع عن العمل بالقرآن؛ فضلًا عن كونها ضعيفة السند جميعًا.

المراجع

(بلا تاريخ). تأليف ابن فارس.

ابن فارس. (١٣٩٩ هـ). تأليف معجم *مقاييس اللغة*. دار الفكر.

ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. تأليف ابن منظور محمد بن مكرم.

أبو الحسن، مسلم، الحجاج. (١٩٥٥). صحيح *مسلم*. القاهرة: مطبعة عيسى البابلي الحلبي.

ابو القاسم، محمد، الخوئي. (١٤١٠ هـ). *التنقيح في شرح العروة الوثقى* (المجلد ط ٣). مطبعة الآداب.

احمد، بن محمد، البرقي. (١٣٧٠ م). *المحاسن*. طهران: دار الكتب الإسلامية.

البحراني. (بلا تاريخ). الحدائق الناضرة. تأليف يوسف البحراني، *الحدائق الناضرة*. قم المقدسة: مؤسسة النشر الإسلامي.

الجنابذي. (١٤٠٨ هـ). *تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة* (المجلد ط ٢). مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.

الحكيم. (بلا تاريخ). علوم القرآن. تأليف محمد باقر الحكيم. المجمع الإسلامي.

الخوئي. (بلا تاريخ). *البيان في تفسير القرآن* (المجلد ط ١). قم: إحياء آثار الإمام الخوئي.

الزركشي. (١٩٥٧ م). البرهان في علوم القرآن. تأليف الزركشي بدر الدين محمد. دار إحياء الكتاب.

الستراَبادي. (بلا تاريخ). الفوائد المدنية. تأليف محمد أمين، *الفوائد المدنية*. طهران: دار الكتب الإسلامية.

السيوطي. (بلا تاريخ). تأليف جلال الدين السيوطي، *الاتقان في علوم القرآن*. مركز الدراسات القرآنية.

الشمري، عماد. (٢٠٢٥م). *الظهور القرآني بين الإخباريين والأصوليين دراسة مقارنة* (المجلد ط ١). مكتبة ميسان للطباعة والنشر.

الشيخ، احمد، الازرقي. (بلا تاريخ). *منهج فهم القرآن عند السيد الصدر* (المجلد ط ١). قم المقدسة: مركز الشهيدين الصدرين للدراسات والبحوث .

الطباطبائي. (١٤١٧ هـ). تأليف محمد حسين الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن* (صفحة ج٣، ص٢٩). قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين.

الطريحي. (١٤٠٨ هـ). مجمع البحرين. تأليف فخر الدين الطريحي. مكتبة الثقافة الإسلامية.

العاملي. (بلا تاريخ). وسائل الشيعة. تأليف محمد بن الحسن العاملي، *وسائل الشيعة* (صفحة ج٢٧، ص١١٥). قم المقدسة: اسماعيليان.

العطار. (١٤٣٣هـ). موجز علوم القرآن. تأليف داود العطار. ذوي القربى.

الفراهيدي. (١٤٠٩هـ). العين. تأليف الخليل بن احمد، *العين*. مؤسسة دار الهجرة .

الفضل، بن الحسن، الطبرسي. (بلا تاريخ). *مجمع البيان* (المجلد ط٣). قم: مؤسسة اسماعيليان.

الفضلي. (٢٠١٥م). تأليف عبد الهادي، *دروس في أصول فقه الإمامية*. دار الهادي.

القرآن. (بلا تاريخ). تأليف سورة الحجر ٩.

القرآن الكريم. (بلا تاريخ). *سورة محمد ٢٤*.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الأحزاب ٣٣*.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الأحزاب ٣٣*.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الإخلاص الآية ١*.

القرآن. (بلا تاريخ). سورة الإسراء ٩.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الاسراء الآية ١٥*.

القرآن. (بلا تاريخ). سورة الحجر ٩.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الشعراء الآية ١٩٥*.

القرآن سورة القيامة ١٨. (بلا تاريخ).

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة النجم الآية ٢٨*.

القرآن. (بلا تاريخ). سورة النحل.

القرآن. (بلا تاريخ). سورة النحل ٤٤.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة النسائ الآية ١٧٤*.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الواقعة ٧٧*.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة الواقعة الآية ٧٧-٧٦*.

القرآن. (بلا تاريخ). سورة محمد ٢٤.

القرآن. (بلا تاريخ). سورة محمد ٢٤.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة محمد الآية ٢٤*.

القرآن. (بلا تاريخ). *سورة يوسف الآية ٢*.

الكاشاني. (١٤١٦ هـ). تفسير الصافي. تأليف الفيض الكاشاني.

الكليني. (١٣٦٣ ش). *أصول الكافي* (المجلد ط ٥). طهران: دار الكتب، طهران.

تفسير الطبري. (١٤١٥). *الطبري* (المجلد ط١). بيروت: دار الفكر.

شبيب، بلاسم، عزيز. (١٤٣٢). *الجهد الاصولي*. النجف الاشرف: العتبة العلوية المقدسة.

طلال الحسن. (بلا تاريخ). مراتب فهم القرآن. مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية.

عبد الجبار. (١٩٩٧م). معجم الفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية. تأليف عادل عبد الجبار زاير.

محمد، باقر، الحكيم. (بلا تاريخ). *علوم القرآن* (المجلد ط٣). المجمع العلمي الإسلامي.

محمد، بن مسعود، العياشي. (بلا تاريخ). *تفسير العياشي*. قم: مؤسسة البعثة.

محمود، الهاشمي، الشاهرودي. (بلا تاريخ). *بحوث في علم الأصول* . المجمع العلمي للشهيد الصدر.

معرفة. (٢٠١١). تأليف محمد هادي معرفة، *التمهيد في علوم القرآن*. دار التعارف للمطبوعات.